

مدينة الأطفال

نقلا عن مجلة "وورلد دايجست" الانجليزية

أخطر وأكثر المجرمين عددا في الولايات المتحدة هم من الأطفال المراهقين ، وهذا ما أثبتته الاحصائيات الأخيرة التي روعت الهيئات الحاكمة وجعلتها في حيرة من أمر هذه المشكلة المعقدة ، ولكن كاهنا كاثوليكيا طيب القلب بصيرا بالأمر تقدم لحل هذه العقدة وهو الأب أدوار . ج. فلاناجان الذي ابتدع فكرة " مدينة الأطفال " فأفلح فيما فشلت فيه الحكومة .

هناك في أغنى بقعة من بقاع الأرض يقف الأب فلاناجان ليقذف وجه الشعب الغافل بتلك الحقيقة المؤلمة ، وهي أن عشرة ملايين من أطفال الولايات المتحدة يعيشون دون المستوى العادي للانسان ، لا يفكر فيهم أحد ، ولا يعمل أحد من أجلهم شيئا ، وييمون على وجودهم في الازقة والشوارع الكبيرة كالكلاب الضالة مهملين ، يأسين ، جائعين . إن العدالة الاجتماعية لتضع على أكتافنا نحن ، لا أكتافهم هم ، تبعه تردى معظمهم في حوة الإجرام ، هكذا كان يتحدث الأب الى جميع الطبقات والأسى يقطع قلبه ، إن أفسكاره ليست خيالية بل هي عبارة تجارب عشرين عاما قضاهها في خلق رجال صالحين . ولقد عالج أكثر من أربعة آلاف حالة علاجا لم يصبه الفشل في واحدة منها .

وفي خلال هذه العشرين عاما تمكن من أن يستأجر منزلا أطمع فيه كل من لاذ به من الأحداث المتشردين ، ووزع عليهم الملابس التي جمعها من أجلهم ، وأضافهم كأحسن ما استطاع ، حتى لقد كان المكان يكتظ كل مساء بأولئك الذين لا يؤويهم بيت ولا يشرق في نفوسهم أمل ، وانما انبعثت في الكاهن هذه الروح الرحيمة منذ قصده في إحدى الليالي صبي منولك القوي ، موزع النفس ، لاهت الأنفاس ، ممزق الثياب ، مشعث الشعر ، شكا اليه جوعه المبرح وطلب منه أن يستضيفه ، فأجاب سؤله .

ومن ذاك الوقت والكاهن يتف حياته على خدمة الطفولة المشردة ، وكان كلما لمع في فكره خاطر معين قال لنفسه في تأثر ظاهر "عند ما أرسل النظر الى ذلك الوجه البارد المتجهم أشعر بالخطأ الذي وقعت فيه ، فإني لكي أنقذ الرجال يتعين على أن أبدأ بالأطفال " .

أما الآن فعلى بعد عشرة أميال من غرب أوماها تقوم مدينة كبيرة يحدها فيها مئات الأطفال كل مطالب الحياة الهائلة المستقرة ، " من عابر " صحية للنوم وملاعب واسعة للرياضة وورشة للنجارة وأمكنة للفصل وأحواض للسباحة ومزرعة زاهرة وبحيرة مليئة بشتى صنوف الأسماك ، الى مدرسة أولية يشرف عليها المجلس المحلي وأخرى عليا تعترف بها الحكومة الى مكتب للبريد ومستشفى خاص .

والمشروع أشبه الأشياء بالمدينة في تخطيطه وتنسيقه ، وهو بحق مدينة أطفال ، تدير أمورها كلها هيئة حاكمة فريدة في نوعها ، فن الأطفال أنفسهم يعين الحاكم العام وأعضاء اللجان ومدير الأمن ومحررو صحيفتهم الخاصة وفرقة الموسيقى والمغنون .

والأب فلانا جان هذا رجل طويل القامة نحيف البدن ، أزرق العينين ساهمهما ، دمت الطباع ، دقيق الفهم ، شديد الحساسية ، له سحر مستفيض وجاذبية لا تقاوم ، والأطفال يرونه أبا وقديسا في وقت واحد لأنه يحبهم من كل قلبه . ويعرفهم واحدا واحدا أكثر مما يعرف بعضهم بعضا .

إن من يرى هؤلاء الملائكة الصغار تتلأأ في وجوههم أنوار الصحة والمرح والرجولة ليسائل نفسه في لحظة الحائر عن البقاع التي قذفت بهم الى ذلك المكان الانساني البديع . لأنه لا يرى إلا عجبا . فهذا طفل تعود به ذاكرته الى ما خاف وراءه من آلام جسام قاماها بعد فقد أبويه وانهت به الى بيت سيدة هاج خيالها يوما ما فاتفقت عليه بمديّة كانت بيدها . وذلك طفل آخر استأفقه القدر الى إحدى عصابات الصيارف فبدأ حياته الجديدة باختلاس ما يربى على مائة دولار من خزانة مصرف . وقد كانت ضالة جسمه وخفة حركاته السبب في أن الحراس لم يحس به أحد منهم . وها كم فتين يافعين قد قتلا أبويهما . ارتكب أحدهما فعلته إنتاذا لأمه من ركل أبيه لها بقدمه ، أما الآخر فقد كان يحب أمه وشقيقته الى درجة العبادة ، غير أن شعوره نحو أبيه قد فتر بعد إذ هجر أمه وتزوج من غيرها . وحدث أن طلب من أبيه أن يزورها وإياه فوعده بذلك . وناهيك بما بذل الجميع قبل الموعد المحدد من جهود في إعداد الفداء ، وتنظيف المنزل وترتيب الأثاث . وعند ما أوف الوقت جلس ثلاثتهم في النافذة يرسلون نظراتهم الغامضة في وجه كل عابر . وفي كل لحظة كانت الأم تنظر الى

الساعة بين الفلق ، بينما كانت فتاتها توفد الشموع التي وضعتها على المائدة ثم لا تلبث أن تطفئها قبل أن تأتي السنة النار على آخرها . وإذا ساورهم اليأس انطلقت الأم متحبة مرثاة بينما كانت شهقات البنت تكاد تمزق صدرها . فأنشأ الفتى يكفكف دموعهما ، ثم دعاها لمصاحبه الى إحدى دور السيما . وعند ما هموا بالخروج تركوا بطاقة يعينون فيها المكان الذي سيقضون فيه سهرتهم . وعند عودتهم خاب رجائهم منه ، فما كان من الصبي إلا أن انسحل الى خارج البيت متأبطا بندقية . ومن وراء نافذة الصالون ابتدر أباه بقوله ” هل حضرت بنا يا أبتاه كما وعدتنا “ فالتفت اليه بحميا في فتور : ” بالبحيم . كلا “ ، فانقض عليه ابنه بندقية وأرداه قتيلًا ثم عاد أدراجه الى البيت لينتظر مصيره المجهول بعد أن خطا الخطوة الأولى في عالم الجريمة .

دار الزمن ديرة سريعة وكان القاضي الذي نظرت أمامه القضية على وشك النطق بحكم الإدانة حين نهض من بين المتفرجين الأب فلاناجان صائحا في صوت جهورى نيل ” هذه قضية غلام يحب أمه . وحى مقعدة بحيث يستعصى حملها على غلام في مثل سنه . إن معامتنا السيئة للأطفال هي الدافع القاهر الذي يدفعهم الى المساوية . وعلى ذلك فالجرم الحقيقي ليس هذا الغلام البرئ المسائل أمامكم “ ثم بسط للقاضي فكرة مدينة الأطفال وقص أبناء بعض الفتيان الذين دوس مشاكلهم أو انتشلهم من الحضيض . وكان من السهل عليه أن يعتمد على ذاكرته في سرد تاريخ كل طفل ... من كان ... ومن هو الآن . وسأل عن هذا الطفل المتهم وطلب تسليمه اليه واعدا بأن يصير منه مواطنا محترما . وقد كان لمرافعته الحارة أثر عميق في نفس الأم فبكت بكاء حارا مسموحا كما فعل الكثيرون ممن حضروا الجلسة حتى ان القاضي لم يتمكن من وقف نشيجهم . لأنه عجز هو أيضا عن حبس شعوره ، وعلى الفور أصدر القاضي حكمه بتسليم الطفل الى الأب فلاناجان الذي لا يدرى أحد على وجه التحديد كم من الرجال المثقفين أمضى اليهم الخدمات الجليلة . وانه مع ذلك ليتواضع فيقول للذين يطرون جهاده الانساني ليس ماتصفوني به من جليل الأوصاف الا خرافة ، فاني لم أصنع بعد شيئا يذكر .